سلسلة الرسائل (٣٢)

مكة حرسها الله تعالى/١٤٤٤هـ

من بركات الحج

للشيخة أم عبد الله بنت الشيخ

مقبل بن هادي الوادعي

حفظها الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمد الأمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

أما بعد:

أخواتي في الله إن تلاقي الحجاج فرصة عظيمة في خير أرض الله عَزَّوَجَلَّ، وفي حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ البلد الأمين، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ ﴾ [التين: ١-٣]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ۝٦٧ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وأقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه البلدة مكة المكرمة؛ لشرفها وفضلها، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ ﴾ [البلد: ١]. فنسأل الله سُبحَانَهُ أن يوفق الجميع لمرضاته.

لقد جاء الحجاج والحاجات إلى هذه الأرض الطيبة؛ ابتغاءَ مرضاة الله، وطلبًا لعفوه ورحمته، وتلبيةً لنداء الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ ﴾ [الحج: ٢٦-٢٧].

فتأتي الألوف المؤلفة إلى هذه الأرض الطيبة؛ تلبية لنداء الله عَزَّوَجَلَّ، ورغبة في الخير والمغفرة.

﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا ﴾ أي: مشاة، فمن الحجاج من يمشي في حجه وخاصة في الزمن القديم، فقد كانوا يمشون مشاة على أقدامهم، وقد جعل الله لهم القوة والبركة، ومنهم من يمشي على راحلته كالبعير والحمير ونحو ذلك.

ولم تكن الأمور قد تطورت كالعصر الحالي، السفريات إمَّا بَرًّا وفي السيارات، أو جَوًّا على الطائرات، أو بحرًا على السفن، يسيرون فيها بتيسير الله لهم.

هذه أسباب جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمُسَيِّر في الحقيقة هو الله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[يونس: ٢٢].

﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ وهؤلاء الركبان.

وإن من أجلِّ بركات الحج ومنافعه: أنه سبب لمغفرة الذنوب، كما قال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» رواه البخاري (١٥٢١) عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

«مَنْ حَجَّ لِلَّهِ» أي: خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، فلا بدَّ أن يكون الحج خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ.

«فَلَمْ يَرْفُثْ» الرفث هنا: الجماع ومقدماته، فهذا لا يجوز في حال الإحرام.

«وَلَمْ يَفْسُقْ» أي: لم يعصِ الله سُبحَانَهُ وهو محرم.

وهذا فيه تحذير الحُجَّاجِ والحاجات من الوقوع في المعاصي، وهي محرمة في حال الإحرام وبعده، ولكنها أخطر وأعظم للمحرم، قال الله تَعَالَى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومن بركات الحج: أنه يُذكِّر بيوم القيامة.

فاجتماع الحجاج في مكان واحد وزمن واحد ليذكِّر بيوم القيامة، وبالوقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، فالحجاج يجتمعون تلك الجموع الهائلة في مكان واحد، ويجتمعون في زمان واحد؛ يرجون ثواب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إنَّ هذا يذكرنا بيوم القيامة، ذلك اليوم الذي يجمع الله عَزَّوَجَلَّ فيه الأولين والآخرين، كما قال تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠]، وقال سُبحَانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود: ١٠٣].

يجتمع فيه الأولون والآخرون، ويخرجون من قبورهم حفاة عراة غرلًا، روى البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩) عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا» قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ».

«تُحْشَرُونَ حُفَاةً» أي: من غير نعل.

«عُرَاةً» أي: من غير لباس.

«غُرْلًا» أي: غير مختونين، وهذا يدل على أنهم يحشرون يوم القيامة كيوم ولدتهم أمهاتهم. وقد استغربت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من هذا، وسألت النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: «الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ».

الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض، فلا أحد منهم يلتفت إلى أحد، حتى الولد لا يلتفت إلى أبيه ولا إلى أمه، ولا يمكن أن يعطي أحدًا حسنة واحدة.

ومعلوم تعب الأبوين على ولدهما وخاصة الأم، فهي التي ربما سهرت الليل كله من أجله، خاصة إذا مرض قد لا تذوق النوم، وهي التي تقوم بإزالة أذاه، وهي التي تتحمل المشاق لأجله، ولكن يوم القيامة يفر من أمه وأبيه وجميع أقربائه، قال سُبحَانَهُ: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

كُلٌّ في حاله، كل في شأنه؛ لأن الأمر شديد والخطْبُ عظيم، ولا أحد يملك شيئًا لأخيه ولا لأبيه ولا لقريبه، ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الانفطار: ١٩].

ذلك اليوم يجب أن نتقيه وأن نخشاه، يجب أن نفكر فيه كثيرًا، لا ينسى هذا اليوم إلا الغافلون الكافرون، أما المسلمون فيذكرون يوم المعاد ويوم الآخرة، قال الله تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦]، وقال سُبحَانَهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [يونس: ٧-٨].

وقال سُبحَانَهُ: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم].

ذلك اليوم العظيم وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بأنه يوم ثقيل، قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧ ﴾[الأنسان: ٢٧].

فلنتهيأ للقاء الله عَزَّوَجَلَّ، ولنعتبر تواجد الحجاج والمعتمرين في هذه الأماكن فرصة للعبادة.

أنت في بلدك تُشغلين، يكون وراءك مسؤولية وأولاد وشواغل، فلا تجدين بعض الدقائق التي هي الآن متيسرة لك، فاعمري وقتك بالطاعة والذكر، فالذكر من أجلِّ العبادات.

وهذا أيضًا من بركات الحج: أنه عون على ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فالحاج دائمًا يذكر الله: يسبح، يحمد الله، يكبر، ويهلل، ويقرأ القرآن، متفرغ للآخرة، فلا يستوليَنَّ عليكُنَّ الكسل والنوم، استغلي هذه الفرصة العظيمة.

سخِّري لسانك لذكر الله، واللسان إذا لم يُسخر في الخير تكلم بالشر، وتكلم بالباطل، ووقع في الغيبة والنميمة والكلام الفارغ الذي لا نفع فيه ولا يعود بالخير، فلنشغل ألسنتنا بذكر الله عَزَّوَجَلَّ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾[الرعد: ٢٨].

ومن بركات الحج ومنافعه: أنه عون على مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ، فالحاج يراقب الله عَزَّوَجَلَّ، فيجتنب المعاصي، ويسابق إلى الخير والمستحبات، يراقب الله عَزَّوَجَلَّ في تنقُّلِه في المشاعر، وفي طوافه حول البيت يعد الشوط الأول والثاني...؛ مراقبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا يدرب النفوس على مراقبة الله تَعَالَىٰ في كل الأحوال في السر والعلن، في الحضر والسفر، في الخلوة وبين الناس، في البيت وخارج البيت «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1] وهذا ركن الإحسان، الذي ينبغي لكل واحدة أن تحفظه.

---

(١) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

على المسلمة أن تكون على يقين بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مطلع عليها، فعوِّدي نفسك على الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى مراقبته.

بعض النساء إذا خلت تنظر إلى الرجال وإلى ما لا يحل لها، إنما فقط تراقب أباها أو زوجها، بل راقبي الله وغضي بصرك، خاصة وأنت منتظرة لأداء فريضة الحج، فالله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[النور: ٣١].

غضي بصرك ولا سيما عند ما تتلبسين بالإحرام، حتى يكون حجك حجًّا مبرورًا، ولا يكون الحج مبرورًا إلا باجتناب المعاصي.

فغض البصر من صفات المرأة المسلمة، حتى الدعاة إلى الله لا تنظري إليهم، فبعض النساء تقول: قلبي نظيف ولا ألتفت لشيء، حتى وإن كان قلبك صافيًا، فالقلب الصافي يَدفع إلى العمل بالأدلة، ولا يأمن أحد على قلبه مهما كان إيمانه، ومهما بلغ علمه، «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يُلْقِيَ فِي أَنْفُسِكُمَا شَيْئًا» رواه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٥).

فلنحرص على غض أبصارنا، فهذه عبادة جليلة، لا تنظري إلى الرجال في هذه الجوالات المتناولة في الأيدي، وإذا خرجت لا تنظري إليهم، فهذه قربة وطاعة لله عَزَّوَجَلَّ، والسلامة لا يعادلها شيء.

بركات الحج كثيرة، وقد قال تَعَالَىٰ: ﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾[الحج: ٢٨].

ومن ذلك: العون على تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالحج يعين على تقوى الله، فنرجو أن يجُرَّ للحُجاج والحاجات الخير فيما بعدُ والاستقامة والتمسك بالسنة، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

هذا فضل عظيم في تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، إذا كنت في كُربة في هَمٍّ وغم عليك بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، ابتعدي عن المعاصي، فإن التوترات والأحزان والقلق ربما يكون ذلك بسبب المعاصي والبعد عن الله عَزَّوَجَلَّ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠﴾ [الشورى].

وكيف نكون من المتقين؟

قال الله تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ [البقرة: ٢١]. نتقي الله عَزَّوَجَلَّ إذا قمنا بعبادة الله التي خلقنا الله عَزَّوَجَلَّ من أجلها.

ومَنِ اتَّقَى الله عَزَّوَجَلَّ فهو على خير عظيم، روى البخاري (٤٧٥٣) من طريق ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ، قَالَتْ: أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ، فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَمِنْ وُجُوهِ المُسْلِمِينَ، قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ، فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكِ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ، قَالَ: «فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَلَمْ يَنْكِحْ بِكْرًا غَيْرَكِ، وَنَزَلَ عُذْرُكِ مِنَ السَّمَاءِ» وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلاَفَهُ، فَقَالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا.

«وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ» أي: في حالة الاحتضار.

«أَخْشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ» تكره الثناء وتخشى على نفسها من العجب، فالعجب مهلكة، فلا تعجبي بعلمك ولا بعملك ولا عبادتك، ولا تعجبي كونك حججت المرة بعد المرة، نسأل الله القبول.

«بِخَيْرٍ إِنِ اتَّقَيْتُ» انظري إلى الثبات، نعم من اتقى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يكون في خير، نسأل الله أن يجعلنا من المتقين، والحمد لله رب العالمين.

تم نشر هذه المحاضرة ولله الحمد والمنة.

يوم الثلاثاء الموافق ١٧/ من شهر ذي القعدة/ لعام ١٤٤٤ للهجرة النبوية

على صاحبها الصلاة والسلام.